الروابط والتعلق لدي الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال

تأثيرات تعرض الأطفال لخبرات الإساءة الانفعالية في مرحلة الطفولة

بروس دنكان بيري

ترجمة/ محمد السعيد أبو حلاوة

قسم علم النفس، كلية التربية بدمنهور، جامعة الإسكندرية

سلسلة إصدارات تعليم الآباء ومقدمي الرعاية
أكاديمية الأطفال ضحايا الصدمات؛ المجلد الأول؛ العدد الرابع، 2001

محتويات المقال

- **أولاً** - المقدمة.

- **ثانيًا** - أسئلة غالبًا ما تثار:

(1) ما المقصود بمصطلح التعلق؟

(2) ما المقصود بمصطلح الرابطة أو العروة؟

(3) هل للتعلق والرابطة أو العروة أسس أو أصل بيولوجي؟

(4) ما خبرات الرابطة أو العروة أو الارتباط والتعلق؟

(5) ما نوافذ هذه الفرصة (فرص تنمية الروابط والتعلق الإيجابي السوي)؟

(6) ما الذي يمكن أن يحدث إذا فقدت أو أغلقت نافذة هذه الفرصة؟

(7) هل يوجد طرق لتصنيف التعلق؟

(8) ما العوامل الأخرى التي تؤثر على الارتباط والتعلق؟

(أ) الطفل. (ب) مقدمو الرعاية (القائمون على أمور تنشئة، رعاية، وتعليم الطفل). (ج) البيئة. (د) التطابق/عدم التطابق.

(9) إلي أي مدى يؤثر تعرض الطفل إلي سوء المعاملة والإهمال على طبيعة وجودة التعلق؟

(10) هل تنشأ وتتطور مشكلات التعلق دائمًا نتيجة التعرض إلي سوء المعاملة؟

(11) ما المشكلات الخاصة التي يمكن توقع رؤيتها لدى الأطفال ضحايا سوء المعاملة ذوي مشكلات التعلق؟:

(أ) التأخر النمائي أو الارتقائي. (ب) مشكلات في الأكل وسلوك الأكل. (ت) سلوك التهدئة أو الترضية أو المصالحة. (ث) الأداء الانفعالي المختل وظيفيًا. (ج) النمذجة غير المناسبة أو المستهجنة. (ح) العدوان.

ثالثاً - ما الذي أستطيع فعله للمساعدة ؟ ما الذي يمكن فعله لمساعدة هؤلاء الأطفال؟

رابعًا - مصادر للمعلومات الخاصة بمشكلات التعلق والارتباط لدى الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال.

خامسًا - مسرد بالكلمات المفتاحية ومعانيها (المصطلحات التي وردت في المقال).

سادسًا - التعريف بالمؤلف.

سابعًا - التعريف بأكاديمية الطفل ضحية الصدمات أو الأزمات.

أولاً - المقدمة

تعد القدرة علي تكوين علاقات اجتماعية متبادلة مع الآخرين والاستمرار في هذه العلاقات الثروة الأكثر قيمة والأكثر أهمية للكائن البشري. إذ لهذه العلاقات أهمية مطلقة بالنسبة لأي منا ليحيا ويتعلم ويعمل ويحب ولينجب. وتأخذ العلاقات الاجتماعية المتبادلة مع الآخرين كثيراً من الأشكال إلا أن أكثر هذه الأشكال كثافة ومتعة وربما تكون الأكثر إيلاماً في بعض الأحيان هي تلك العلاقات التفاعلية مع الأسرة، الأصدقاء والأشخاص الذين نحبهم. ففي سياق هذه الدائرة من العلاقات الحميمة يرتبط بعضنا بالبعض الآخر بما يسمي باللُحمة الانفعالية بما يفضي إلي الترابط والتواد الانفعالي بشكل عام.

وتختلف قدرة كل فرد منا في تكوين والاستمرار في مثل هذه العلاقات باستخدام هذه اللُحمة الانفعالية. إذ يبدو بعض الأشخاص كأنهم قادرون هكذا بالفطرة علي حب الآخرين والتواد معهم وبالتالي يدخلون في علاقات تفاعل اجتماعي حميم ودافئ مع كثيرٍ من الناس وباستمرارهم في هذه العلاقات يجدون متعة شديدة تدفعهم بطبيعة الحال إلي توسيع شبكات علاقاتهم الاجتماعية علي هذا النحو. بينما قد لا يكون آخرون محظوظون بنفس الدرجة فتراهم غيرُ ميالون لتكوين أو الدخول في علاقات تفاعل اجتماعي متبادل مع الآخرين وإن اضطروا للدخول في مثل هذه العلاقات تجدهم غير مستمتعون بها لدرجة قد تدفعهم إلي الانسحاب من معظم التفاعلات الاجتماعية مفضلين العزلة والابتعاد عن الآخرين وبالتالي قد لا يكون لديهم أصدقاء كما أن اللُحمة الانفعالية بينهم وبين أسرهم قد تكون معدومة وفي الحالات المتطرفة من هذه الأزمة في واقع الأمر ربما لا يكون للفرد الذي ينطبق عليه الوصف السابق أية روابط انفعالية مع أي شخص وهنا قد يصل إلي مرحلة التقوقع حول الذات أو العيش في حدود الذات وربما يظهر العلامات العصبية النفسية للفصام أو التوحد.

وترتبط القدرة علي/ والرغبة في تكوين أو الدخول في علاقات انفعالية مع الآخرين بتنظيم ووظائف أجزاء معينة للمخ البشري. فكما أن المخ يسمح لنا أو يمكننا من الرؤية؛ الشم؛ التذوق؛ التفكير؛ التحدث؛ والحركة فإنه العضو الذي يسمح لنا أو يمكننا كذلك من الحب والتواد مع الآخرين أو العكس. وتسمح لنا أو تمكننا نظم المخ البشري بتكوين والاستمرار في علاقات انفعالية تتطور خلال مرحلة المهد والسنوات الأولي من حياتنا. وللخبرات المبكرة التي نتعرض لها خلال هذه المرحلة من العمر تأثيرات شديدة علي تشكيل قدرتنا في تكوين والدخول وإقامة علاقات انفعالية حميمة ودية مع الآخرين. كما التعاطف والرعاية والاهتمام والمشاركة وعدم التعرض للعنف أو العدوان والتقبل ودفء العلاقة وتلقى وإعطاء الحب تمثل الخصائص الأساسية للخبرات التفاعلية السوية التي يفترض أن نتعرض لها جميعاً في طفولتنا المبكرة. ويصح التأكيد بناء علي نتائج مجمل الدراسات النفسية في المجال أن الشخص السوي السعيد المنتج الفعال الإيجابي هو ناتج التعايش مع خبرات تعلق أو ارتباط إيجابية سوية مع الآخرين خاصة الوالدين والأم بصفة خاصة في مرحلة المهد والطفولة المبكرة.

ثانيًا
أسئلة غالبًا ما تُثار

11. <u>ما المقصود بمصطلح التعلق What is attachment ؟</u>

يستخدم مصطلح التعلق أو الارتباط بصورة متكررة من قبل المتخصصون في مجال الصحة النفسية وعلم نفس نمو الطفل والعاملون في هيئات رعاية ووقاية الأطفال إلا أن لهذا المصطلح فروقاً بسيطة فيما يتعلق بمعناه في هذه السياقات المختلفة. والشيء الأول الذي يتعين علينا معرفته أننا كبشر نخلق أو نكون كثيراً من أنواع الروابط والرابط هو اتصال قوي بين شخصٍ وآخر. ويشير مصطلح التعلق أو الارتباط في مجال علم نفس نمو الطفل إلي رابطة خاصة تتميز بمواصفات فريدة لعلاقات شديدة التميز بين الأم والرضيع أو لعلاقات شديدة الخصوصية أيضاً بين الطفل ومقدمي الرعاية الأولية له. ولرابطة التعلق هذه عناصر أساسية عديدة منها:

- رابطة التعلق هي علاقة انفعالية لها طابع الدوام مع شخصٍ معين.
- تجلب العلاقات الانفعالية المتبادلة المجسدة لرابطة التعلق الإيجابي أمناً وراحةً وهدوءً ومتعةً للطرفين.
- الافتقاد إلي أو مجرد التهديد بغياب أو الافتقاد إلي الشخص الآخر (ممثل أو مجسد أو مصدر التعلق) ينشط انزعاجاً وتوتراً وضيقاً نفسياً شديداً قد يفضي إلي المعاناة من اضطرابات نفسية وسلوكية شديدة أوضحها في مرحلة الطفولة المبكرة وما بعدها ما يعرف بمتلازمة قلق الانفصال.

وتعد علاقات الأم/الطفل من أوضح الأمثلة التي تتجلى فيها هذه الصيغة الخاصة من العلاقة. وقد اتضح من دراسة طبيعة هذه العلاقات شديدة الخصوصية مدى تأثيرها علي/ وأهميتها الدالة بالنسبة للنمو النفسي للطفل في المستقبل أو في المراحل النمائية التالية. ويشعر كثيرُ من الباحثين والكلينيكين في الحقيقة أن علاقات التعلق بين الأم/الطفل تمثل إطاراً مرجعياً يمكن انطلاقاً منه التبصر بكافة العلاقات التفاعلية التي سيطورها الطفل لاحقاً.

ويبدو أن علاقات التعلق أو الارتباط القوية والسوية للطفل بين الطفل ومقدمي التربية والرعاية له ترتبط باحتمالات مرتفعة لتكوين هذا الطفل لعلاقات تفاعل اجتماعي سوي وإيجابي مع الآخرين في المستقبل. بينما ترتبط علاقات التعلق أو الارتباط غير السوية أو السلبية بين الطفل وأمه أو غيرها من مقدمي التربية والرعاية الأولية له باحتمالات معاناته من كثيرٍ من المشكلات الانفعالية والسلوكية في مراحل حياته التالية.

وعادة ما يستخدم مصطلح التعلق في مجال الصحة النفسية ليعكس القدرة الكلية على تكوين العلاقات مع الآخرين. ولأغراض الورقة الحالية، يشير مصطلح قدرات التعلق , **Attachment Capabilities**. القدرة على تكوين والاستمرار في علاقة انفعالية مع الآخرين بينما يشير مصطلح التعلق **Attachment** إلي طبيعة وجودة العلاقة الفعلية. فقد

يكون لدي الطفل، على سبيل المثال تعلق آمن مع الآخرين (خاصة المقربون منه الآباء ومقدمي الرعاية) أو تعلق غير آمن مع الآخرين.

12. **ما المقصود بمصطلح الرابطة أو العروة؟ What is bonding?-**

يمكن القول ببساطة، أن الرابط أو العروة أو الربط عملية تكوين التعلق. ولما كان الربط كمصطلح يستخدم عندما نلصق شيئًا بآخر، فالربط في مجالنا هذا يستخدم ما يعرف بالغراء الانفعالي لنصبح مترابطون كل منا بالآخر. وتتضمن الرابطة أو الربط إذن مجموعة من السلوكيات التي تفضي إلي الارتباط الانفعالي (التعلق).

13. **هل للتعلق والرابطة أو العروة أسس أو أصل بيولوجي؟ Are bonding and attachment genetic?.**

القدرة البيولوجية للارتباط ولتكوين صيغ تعلق مع الآخرين تتحدد في معظمها بناء على التركيب الجيني. فالدافع إلي البقاء على قيد الحياة دافعًا أساسيًا لدى كل الكائنات الحية. ويولد الأطفال وهم عاجزون تمامًا وبالتالي يتوقف وجودهم على قيد الحياة على وجود الآخرين الذين يقدمون لهم الرعاية. وفي سياق الاعتماد التام هذا على الآخرين وبناء على استجابات الأم على وجه الخصوص لاعتماد الطفل المطلق على الآخرين تنشأ وتتطور العلاقة مع الآخر. وهذا التعلق جوهري لبقاء الطفل على قيد الحياة. والأم السوية بدنيًا وانفعاليًا ترتبط بطفلها وتشعر بكل ما ينتابه من تقلبات من خلال اقترابها البدني منه، من خلال لمسه، شمه، مداعبته، أرجحته، احتضانه، الغناء له، والنظر أو الحملقة فيه. ويستجيب الطفل بالتبعية لهذه السلوكيات من خلال الاقتراب، المناغاة، الابتسام، الرضاعة أو المص، والتشبث بالأم.

وتجلب سلوكيات الأم في معظم الحالات بهجة وسرورًا، هدوءًا وتوردًا وازدهارًا للطفل كما سلوكيات تجاوب الطفل مع أمه تجلب لها أيضًا متعة، فرحًا ورضا. وبناء على دائرة التغذية الراجعة الإيجابية هذه وعلى هذا التناغم الراقص بين الأم والطفل ينشأ ويتطور التعلق.

وعليه، بالرغم من الأساس البيولوجي للرابطة والتعلق، فإن طبيعة، جودة، نمط، وكثافة خبرات الحياة المبكرة التي تعبر عن هذا الأساس البيولوجي هي التي تحدد صيغة أو شكل التعلق أو الارتباط. وبدون تعرض الطفل لرعاية أو أساليب معاملة والدية متسقة، ودية، متقبلة، محبة، متفهمة وغنية بالمثيرات الحسية المنشطة للتفاعل الإيجابي، لا يمكن أن تتحقق الإمكانيات النمائية الفطرية للتعلق والارتباط العادي أو السوي التي يولد كل الأطفال مزودون بها. حيث يتعذر في ظل افتقاد أو حرمان الطفل من مثل هذه الرعاية أو المعاملة (الرعاية وأساليب المعاملة الوالدية القائمة على التواد والتقبل والتفاهم والتجاوب الإنساني السوي مع الاحتياجات البدنية والنفسية الاجتماعية للطفل ولسلوكياته التعبيرية) أن تتطور نظم المخ المسئولة عن العلاقات الانفعالية السوية. إذ أن هذه النظم (نظم المخ الانفعالي إن جاز التعبير) لا تنمو بالصورة السوية إلا إذا تعرض الطفل لأنماط الخبرات الصحيحة في الأوقات الصحيحة من حياته (غالبًا خلال السنوات الست الأولي من عمره).

14. ما خبرات الرابطة أو العروة أو الارتباط والتعلق؟ What are bonding experiences?

تجسد أفعال الاحتضان، الأرجحة، الغناء، التغذية، النظر، التقبيل وغيرهما من سلوكيات الرعاية المتضمنة في عملية تنشئة الأطفال خبرات الرابطة أو العروة أو الارتباط **bonding experiences**. ومن العوامل ذات التأثير الحاسم على الرابطة أو العروة أو الارتباط أثناء الوقت الذي يقضيه الطفل مع الآخرين خاصة الأم (في الطفولة، الكم لا يهم!) التفاعل وجهًا لوجه، التواصل البصري، الاقتراب البدني، اللمس وغير ذلك من الخبرات الحسية مثل الشم، الصوت، والتذوق.

ويعتقد الكثيرُ من العلماء أن العامل الأكثر أهمية في خلق التعلق هو الاتصال (التواصل) البدني الإيجابي (مثل، الاحتضان والعناق، التقبيل، الحمل، الأرجحة). ولا يجب أن نستغرب إن قلنا أن احتضان الطفل، تقبيله، عناقه، النظر إليه، الابتسام إليه، الغناء له، والضحك معه يثير أنشطة عصبية كيميائية معينة بالمخ. وتفضي هذه الأنشطة العصبية الكيمائية إلي بناء وتنظيم نظم المخ المسئولة عن التعلق.

والعلاقة الأكثر أهمية لحياة الطفل هي الارتباط والتعلق مع رموز الرعاية الأولية خاصة الأم بطبيعة الحال. ويرجع هذا الأمر إلي الحقيقة التي مفادها أن العلاقة الأولي تعبد أو تمهد الطريق لطبيعة ونوعية علاقات التعلق التالية بل تجسد القالب البيولوجي الانفعالي للعلاقات أو الروابط الاجتماعية في المستقبل. فالتعلق السوي للطفل مع الأم الذي يبنى على خبرات الروابط أو العروة المتكررة خلال مرحلة المهد والطفولة المبكرة يوفر أساسًا قويًا للعلاقات الاجتماعية السوية في المستقبل. على العكس، تفضي مشكلات الارتباط والتعلق إلي تكسير أو تحطيم الأسس البيولوجية والانفعالية لهذه العلاقات الاجتماعية في المستقبل.

15. ما نوافذ هذه الفرصة؟ When are these windows of opportunity?

الوقت هو كل شيء. تفضي خبرات الرابطة أو العروة إلي صيغ تعلق سوي وقدرات تعلق صحي عندما توفر هذه الخبرات للأطفال خلال السنوات المبكرة من عمرهم. خلال الثلاث سنوات الأولي من العمر، ينمو المخ البشري إلي ما يقرب من 90% من مخ الراشد وتتموضع في مكانها غالبية نظمه وبناءاته بصورة قريبة من مخ الراشد ومنها النظم المخية المسئولة عن الأداء الانفعالي، السلوكي، الاجتماعي، الفسيولوجي الوظيفي أثناء بقية حياتهم.

ويوجد فترات نمائية حرجة يجب أن توفر وتقدم فيها خبرات الارتباط لتنمو نظم المخ المسئولة عن التعلق والارتباط الانفعالي الاجتماعي مع الآخرين. ويبدو أن السنة الأولي من عمر الطفل تمثل الفترة النمائية الحرجة والأكثر أهمية لنمو نظم المخ (نظم المخ الانفعالي) المرتبطة بقدرة الطفل ومقدمي الرعاية له على تنمية علاقات تفاعلية إيجابية.

16. ما الذي يمكن أن يحدث إذا فقدت أو أغلقت نافذة هذه الفرصة؟ What happens if this window of opportunity is missed?.

يتنوع تأثير تعوق أو خلل علاقات التعلق أو الارتباط التي قد يتعرض لها الأطفال خلال مرحلة الطفولة المبكرة. فلو تعرض الطفل إلي **الإهمال الانفعالي** الشديد خلال مرحلة الطفولة المبكرة تتأثر كافة أبعاد النمو النفسي لديهم بصورة سلبية بالغة الخطورة خاصة النمو الاجتماعي والنمو الانفعالي. فالأطفال الذين يفتقدون إلي اللمس، الإثارة البيئية والرعاية الوالدية الإيجابية السوية يمكن أن يفقدوا كليًا أو حرفيًا القدرة على تكوين أي علاقات اجتماعية هادفة أو ذات معني خلال بقية حياتهم.

ولحس الحظ أن معظم الأطفال لا يعانون من هذه الدرجة من الإهمال. ومع ذلك هناك الكثيرُ من ملايين الأطفال الذين لديهم درجة ما من تعوق أو خلل في علاقات الارتباط والتعلق أثناء مرحلة الطفولة المبكرة. وتتنوع المشكلات التي تترتب على هذا التعوق أو الخلل بصورة كبيرة بين عدم الارتياح البسيط أثناء العلاقات الاجتماعية المتبادلة مع الآخرين إلي المعاناة من مشكلات اجتماعية انفعالية عميقة أو بالغة الخطورة. وبصورة عامة تتوقف شدة وخطورة المشكلات التي تترتب علي تعوق أو خلل علاقات الارتباط والتعلق على الوقت الذي يتم فيه التعرض **للإهمال الانفعالي** فكلما كان ذلك في السنوات العمرية المبكرة كلما كانت خطورة التأثير، كما تؤثر مدة وشدة التعرض للإهمال بصورة حاسمة على شدة مثل هذه المشكلات.

ولا يعني ما تقدم أنه لا يوجد أمام الأطفال الذي يتعرضون لخبرات تعلق أو ارتباط سلبية أي أمل في نمو علاقات تفاعل اجتماعي عادي أو صحي خلال بقية مراحل حياتهم. ولا نعلم إلا القليل جدًا فيما يتعلق بالقدرة على تغيير هذه الخبرات في المراحل التالية. بل يشكك الكثيرُ من العلماء في إمكانية تغيير أو إصلاح قدرات التعلق والارتباط المختلة أو المعاقة أو غير المنظمة. ومع ذلك تظهر الخبرات الكلينيكية ونتائج عددًا من الدراسات إمكانية إحداث بعض التحسينات، لكنها عملية طويلة، صعبة، ومحبطة للأسر وللأطفال في نفس الوقت. فقد يقتضي الأمر سنوات من العمل الجاد للمساعدة في تصحيح التلف أو الضرر الذي يترتب على فقط شهور قليلة من الإهمال الانفعالي والبدني في مرحلة المهد والطفولة المبكرة.

17. هل يوجد طرق لتصنيف التعلق؟ Are there ways to classify attachment?

مثل السمات الأخرى كالطول والوزن، لقدرات التعلق طبيعة متصلة. وفي محاولة دراسة هذا المدى لصيغ التعلق، نظم الباحثون متصل يستوعب أربع فئات للتعلق هي: التعلق الآمن؛ التعلق غير الآمن المقاوم أو الرافض؛ التعلق غير الآمن المتجنب، التعلق غير الآمن المفكك أو غير الموجه. يشعر الأطفال ذوي التعلق الأمن بالاتساق، التجاوب، المساندة، التقبل، التواد، الرعاية في علاقتهم بأمهاتهم أثناء أوقات الضغوط أو الضيق والكدر. أما الأطفال ذوي صيغ التعلق غير الآمن فيشعرون بالتذبذب، العقاب، وعدم التجاوب أو عدم الحساسية الانفعالية من قبل مقدمي الرعاية لهم ويشعرون بالتهديد والخوف أثناء أوقات الضغوط أو الضيق والكدر. ويوضح الجدول رقم (1) تصنيف التعلق كما كشفت عنه نتائج دراسات طبقت على عينة من الأطفال الذين تبلغ أعمارهم سنة واحدة باستخدام فنية أو إجراء موقف الغريب.

التعلق الأمن: Securely attached	60-70 %	استكشاف البيئة أثناء تواجد الأم؛ الانزعاج الشديد عند مغادرة الأم؛ الارتياح والتحية الدافئة عند عودة الأم؛ السعي إلي الاقتراب البدني من الأم عند عودتها وعلامات الارتياح.
التعلق غير الآمن: التجنب. Insecure: avoidant	15-20 %	تجاهل الأم عند وجودها بالحجرة؛ ضيق أو استياء قليل عند مغادرة الأم الحجرة؛ الابتعاد النشط عن الأم عند عودتها.
التعلق غير الآمن: المقاوم أو المعارض Insecure: resistant.	10-15 %	استكشاف قليل للبيئة أثناء تواجد الأم في الحجرة؛ البقاء بالقرب من الأم؛ انزعاج أو استياء بسيط جدًا عند مغادرة الأم للحجرة؛ تناقض أو غضب ومقامة الاتصال البدني بالأم عند عودتها إلي الحجرة.
التعلق غير الأمن: المفكك أو غير الموجه Insecure: disorganized disoriented.	5-10 %	غموض فيما يتعلق بالإقدام أو الإحجام عن الأم أثناء تواجدها في الحجرة؛ يظهر غالبية الأطفال انزعاج أو استياء عند ترك الأم للحجرة؛ بعد عودة الأم إلي الحجرة تصدر عنهم أفعال مرتبكة أو متشابه مع سلوك التأرجح بين الإقدام الإحجام في النماذج الحيوانية.

وطورت دكتورة مارى أنسورث **Mary Ainsworth** عملية بسيطة لفحص طبيعة تعلق أو ارتباط الطفل بالآخرين خاصة مقدمي الرعية له (الأم بصفة محددة). وأطلقت على هذه العملية إجراء موقف الغريب **The Strange Situation procedure** . ويمكن القول ببساطة، أن الأم والطفل يتم ملاحظتهما في مواقف متتابعة: " الوالدين – الطفل بمفردهما في حجرة لعب؛ يدخل شخص غريب إلي الحجرة؛ يترك الوالدين الطفل في الحجرة ويبقى الشخص الغريب ويحاول تهدئة الطفل الصغير؛ يعود الوالدين ويهدئا الطفل الصغير؛ يغادر الشخص الغريب الحجرة؛ تغادر الأم الحجرة وتترك الطفل الصغير بمفرده، يدخل شخص غريب ويحاول تهدئة الطفل الصغير، يعود الوالدين ويحاولان تهدئة الطفل والاندماج معه " . ويتم ملاحظة ورصد السلوكيات المختلفة التي تصدر عن الطفل خلال هذه المواقف. ويظهر الجدول رقم (1) السلوكيات المختلفة التي صدرت عن عدد كبير من الأطفال تم تعريضهم لهذه المواقف. وبالتالي يمكن القول بأن نموذج تصنيف التعلق على متصل يتضمن الأربعة أشكال أو الصيغ الموضحة بالجدول تدعمه شواهد تجريبية ميدانية.

18. **ما العوامل الأخرى التي تؤثر على الارتباط والتعلق؟ What other factors influence bonding and attachment?.**

يمارس أي عامل له علاقة بخبرات الرابطة أو العروة تأثيرًا واضحًا على نشأة وتطور قدرات التعلق. فعندما تختل علاقات التفاعل أو التناغم المتبادل بين الطفل والقائمين على شئون تنشئته، رعايته، وتعلميه يتعذر بناء خبرات رابطة أو عروة سوية. وقد يحدث الخلل أو التشوه في هذا الخبرات نتيجة مشكلات أولية إما لدى الطفل أو لدى القائمون على شئون

تنشئته، رعايته، وتعليمه أو في البيئة أو في مدى التناسق أو التطابق بين شخصية الطفل وشخصيات القائمين على شئون تنشئته، رعايته، وتعلميه.

- الطفل **Infant**.

تؤثر شخصية الطفل وخصائصه المزاجية بصورة كبيرة على الارتباط أو التعلق. فالطفل الذي يصعب تهدئته، نزق أو سريع الغضب، غير حساس أو غير متجاوب مقارنة بالطفل الهادئ الذي يسهل ترضيته وتهدئته أكثر عرضة بطبيعة الحال لمواجهة صعوبات في نمو التعلق الآمن مع الآخرين. كما أن قدرة الطفل على الاشتراك في تفاعل نشط أو إيجابي مع الأم ربما تعاق أو تختل نتيجة حالة طبية مرضية مثل الابتسار أو الولادة قبل الأوان وما يرتبط به من نقص الوزن عند الولادة؛ الخلل الخلقي، أو المرض.

- مقدمو الرعاية للطفل (القائمون على شئون تنشئة، رعاية، تعليم الطفل). **Caregiver** .

يمكن أن تعيق سلوكيات مقدمي الرعاية للطفل تعلقه أو ارتباطه بالآخرين. فالآباء الناقدون، الرافضون، المتسلطون، والسلبيون ينتجون أطفالاً يتجنبون التواد الانفعالي مع الآخرين بل قد يعزلون أنفسهم عن الخبرات الاجتماعية المختلفة وينسحبون من كافة مواقف التفاعل الاجتماعي في المراحل العمرية التالية. وربما لا تتجاوب الأم مع طفلها نتيجة: معاناتها من الاكتئاب، تعاطي المخدرات، المشكلات الشخصية العنيفة، وغير ذلك من العوامل التي تؤثر بالسلب على قدرتها على الاتساق في معاملة طفلها وعلى قدرتها على رعايته.

- البيئة **Environment**.

الخوف هو العائق الرئيسي للتعلق أو الارتباط السوي مع الآخرين. فإن عاش الأطفال في بيئة مكدرة انفعاليًا له نتيجة الألم والتهديد العام واضطراب البيئة أو خوائها وعدم اتساقها، يمكن أن يواجهون صعوبات بالغة في الاشتراك حتى في علاقات التفاعل الودية مع مقدمي الرعاية لهم. والأطفال الذين يعيشون في بيئة منزلية يشيع فيها العدوان الأسري، بيئة مناطق اللاجئين، بيئة مناطق الحروب والنزاعات المسلحة أكثر عرضة لنشأة وتطور مشكلات في التعلق أو الارتباط مع الآخرين.

- التطابق/عدم التطابق **Fitting/Unfitting**.

من المهم لنشأة وتطور علاقات تعلق ارتباط آمن للأطفال أن يكون هناك حدًا أدني من التطابق أو التناسق بين قدرات الطفل وتكوينه المزاجي وقدرات الأم وتكوينها المزاجي على وجه الخصوص. وهناك من الآباء من يكونون على ما يرام حال تعاملهم مع أطفال هادئون، طيعون، يسهل ترضيتهم وتهدئتهم بينما ينزعجون، يستاءون، يتضايقون ، ويشعرون بالعجز إذا تعاملوا مع أطفال نزقون، سريعو الغضب، صعبوا المزاج. وعملية الانتباه إلي، قراءة كل من الآخر (الطفل/الأم) للقرائن أو الهاديات غير اللفظية، والتجاوب المناسب كل للآخر أمرًا مركزيًا لتعزيز خبرات الرابطة أو العروة التي تؤدي إلي صيغ التعلق السوي أو الصحي.

وفي بعض الأحيان قد يكون أسلوب التواصل والاستجابة الذي ألفته أو اعتادت عليه الأم في التعامل مع طفل في الأسرة غير مناسب أو غير متطابق مع طفل آخر في نفس الأسرة. والإحباط المتبادل للتنافر النفسي يعيق بطبيعة الحال الرابطة أو العروة بين الطفل والأم على وجه الخصوص.

19. إلي أي مدى يؤثر تعرض الطفل إلي سوء المعاملة والإهمال[1] على التعلق؟

.How does abuse and neglect influence attachment?

يوجد ثلاثة موضوعات أساسية أمكن ملاحظتها ورصدها في بيئة الأسر التي تسئ معاملة وتهمل أطفالها.

الموضوع الأول:

هو أن التأثير الأكثر شيوعًا أن الأطفال ضحايا سوء المعاملة، خاصة الأطفال الذين يتعرضون إلي الرفض أو النبذ من قبل الوالدين تنشأ وتتطور لديهم الكثير من المشكلات النفسية والسلوكية الخطيرة (انظر أسفل) بما فيها من صعوبات جمة في تطوير تواد أو علاقات انفعالية ودية مع الآخرين. وفي الأسر المسيئة والمهملة إلي أطفالها، من المعتاد أن يكون النبذ وسوء المعاملة ذا طابع توارثي بين الأجيال. فالأب المهمل لأطفاله كان طفلاً ضحية للإهمال الوالدي في صغره. وعليه فإن مثل هذا الأب يواصل تدشين أسلوب التربية الذي تعرض له في صغره ويعيد إنتاج هذا الأسلوب (الإساءة والإهمال) في علاقاته مع أطفاله.

الموضوع الثاني:

فيعرف بظاهرة جعل الطفل في مكانة الوالد أو ما يعرف بإسقاط دور الوالدية على الطفل **parentification**". وتأخذ هذه الظاهرة صيغ متعددة. من أكثرها شيوعًا عندما تصبح فتاة صغيرة غير ناضجة أم تعول أسرة بمفردها (أسرة وحيدة العائل) هنا يتم التعامل مع الطفل الذي أنجبته هذه البنت زميل لعب بل يصبح في فترة مبكرة من الحياة مثل الصديق. ومن المألوف أن نسمع مثل هؤلاء الأمهات صغيرات السن يقلن عن أطفالهن الذين يبلغون من العمر أربع أو خمس سنوات (إنه أفضل صديق لي)، (إنه رجلي الصغير). وفي حالات أخرى، قد يكون الراشدين غير ناضجين وغير مؤهلون للتعامل مع الأطفال وبالتالي يتعاملون مع أطفالهم كما لو كانوا راشدين. ونتيجة لذلك تضيق فرص مثل هؤلاء الأطفال في المشاركة في أنشطة وخبرات التفاعل مع غيرهم من الأطفال. مما يعوق اكتساب هؤلاء الأطفال للمهارات الاجتماعية المختلفة ومما يحرمهم من تكوين علاقات صداقة مع الأطفال من نفس السن.

[1] على الرغم من أن عنوان المقال الحالي يتضمن بصورة مباشرة الإساءة الانفعالية إلا أنه لا توجد أدني إشارة إلي: تعريفها، صيغها، محدداتها، ديناميا‌تها، ... الخ. وهذا أمر مبرر لأن هذا المقال تتمة لعدد من المقالات التي وردت في السلسلة المشار إليها ومنها مقال خاص يناقش كافة قضايا سوء المعاملة والإهمال والإساءة الانفعالية على وجه الخصوص.

بينما نجد أن الموضوع أو القضية الثالثة في هذا السياق تتمثل في طابع الانتقال التوارثي لمشكلات التعلق بمعني أن هذه المشكلات تنتقل بين الأجيال.

ومن المهم أن نلاحظ أن التعلق والارتباط الآمن السابق يمكن أن يتغير فجأة عقب التعرض إلي سوء المعاملة والإهمال. فربما نجد أن إدراك الطفل ضحية سوء المعاملة والإهمال للعالم كمكان متسق ومتقبل وآمن يتغير بصورة تامة إلي الاتجاه السلبي المعاكس. على سبيل المثال، تتغير بصورة تامة في الاتجاه السلبي وجهات النظر الإيجابية التي قد تكون لدي الطفل تجاه الراشدين عقب تعرضه لخبرات الإساءة والإهمال على يد الراشدين (الوالدين على وجه الخصوص).

110. هل تنشأ وتتطور مشكلات التعلق دائمًا نتيجة التعرض إلي سوء المعاملة؟
Are attachment problems always from abuse?.

لا، في الواقع غالبية مشكلات التعلق ترجع إلي جهل الآباء بالنمو النفسي للأطفال أكثر من سوء المعاملة والإهمال. فكثير من الآباء لا يعرفون كيف ينشئون أو كيف يتعاملون مع أطفالهم بطرق تتناسب مع خصائص نموهم النفسي، كما لا يعرفون أيضًا طبيعة الخبرات التي تتناسب مع الأطفال خلال الثلاث سنوات الأولى من عمرهم.

وبالتالي من خلال البرامج التعليمية العامة وبرامج التوعية وسياسات المساندة والدعم للآباء، يمكن تحسين هذا الوضع. وحاليًا، هذا الجهل شائع بصورة مخيفة مما يمكن في ضوئه التأكيد على أنه السبب المباشر في كل من مشكلات التعلق لدى الأطفال وتزايد تعرضهم لسوء المعاملة والإهمال. وهذا الوضع الخطير أدى إلي أن واحدًا من كل ثلاثة أطفال لديه صيغ تعلق غير آمن : تجنبي، متناقض، أو معارض ومقاوم مع القائمين على شئون تنشئته، رعايته، وتعليمه.

وعلى الرغم من هذا التعلق غير الآمن، فإن هؤلاء الأفراد من خلال المساندة والتدريب يمكن أن يقيمون ويستمرون في علاقات تفاعل مع الآخرين ولكن ليس بالسهولة التي توجد لدى غيرهم من ذوي التعلق الآمن.

111. ما المشكلات الخاصة التي يمكن توقع رؤيتها لدى الأطفال ضحايا سوء المعاملة ذوي مشكلات التعلق؟
What specific problems can I expect to see in maltreated children with attachment problems?

ربما تتنوع بصورة كبيرة المشكلات الخاصة التي يمكن أن تراها بناء على طبيعة، شدة، مدة، وتوقيت التعرض للإهمال وسوء المعاملة. فقد يعاني بعض الأطفال من مشكلات عميقة وواضحة في حين يعاني البعض الآخر من مشكلات بسيطة لدرجة قد لا يدرك ارتباطها بالإهمال في مرحلة الحياة المبكرة. وقد يوجد في بعض الأحيان أطفالاً آخرين يبدو عدم تأثرهم بهذه الخبرات. ومع ذلك، من المهم أن تتذكر لماذا تعمل مع الأطفال؟ وما إذا كانوا يتعرضون لأشياء مخيفة مثل سوء المعاملة والإهمال أم لا؟. يوجد بعض القرائن أو الهاديات التي يضعها الكلينيكيون المؤهلين عند العمل مع مثل هؤلاء الأطفال منها:

- التأخر النمائي أو الارتقائي Developmental delays.

غالبًا ما يعاني الأطفال ضحايا **الإهمال الانفعالي** في مرحلة الطفولة المبكرة من تأخر نمائي في الكثير من مجالات النمو النفسي خاصة النمو الاجتماعي والانفعالي. فالرابطة بين الطفل الصغير والقائمين على شئون تنشئته، رعايته، وتعليمه الوسيلة الرئيسية للنمو البدني، الانفعالي، والمعرفي. وفي هذا السياق الرئيسي (سياق علاقات التفاعل بين الطفل ومقدمي الرعاية له) يتعلم الأطفال اللغة، السلوكيات الاجتماعية، والكثير من السلوكيات الأخرى المطلوبة للنمو السوي أو الصحي. ونقص اتساق ونقص ثراء أو فقر خبرات التفاعل الاجتماعي التي يتعرض لها الأطفال خلال مرحلة الطفولة المبكرة يمكن أن ينتج تأخر دال في النمو الحركي، اللغوي، الانفعالي، والمعرفي.

- الأكل أو سلوك الأكل **Eating** .

من الشائع أن يوجد شذوذ في سلوكيات الأكل، بين الأطفال ضحايا الإهمال الشديد وذوي مشكلات التعلق. فقد يخزنون، يخفون الطعام في حجرهم، يأكلون كما لو كانت هذه آخر وجبه لهم على الرغم من وجود نظام متواتر ومتسق لتناول الوجبات. ومع كثرة تناولهم للطعام قد يفشلون في الازدهار البدني (متلازمة الفشل في الصحة البدنية الناتجة من أسباب غير عضوية)، وقد يمارسون ما يعرف بالاجترار (إبقاء الطعام في الفم لمدة طويلة ومضغه وبلعه ثم إعادته للفم وإعادة مضغه كالعلكة)، وقد يعانون من مشكلات في البلع، وقد يساء تشخيص هذه السلوكيات الشاذة في المراحل العمرية التالية تحت فئة فقدان الشهية العصبي **anorexia nervosa**.

- سلوك التهدئة أو الترضية أو المصالحة **Soothing Behavior**.

يمكن أن يستخدم هؤلاء الأطفال سلوكيات بدائية جدًا، غير ناضجة، وغريبة أو شاذة لتهدئة ذاتهم حال ضيقهم أو كدرهم أو استيائهم الانفعالي. ربما يعضون أنفسهم، يضربون رؤوسهم، أرجحة الجسد بصورة عنيفة، ترتيل الأناشيد أو الغناء الشاذ، خربشة أو تقطيع البدن وإيذاء الذات. وتزداد هذه الأعراض بصورة كبيرة أثناء أوقات الضيق والكدر الانفعالي أو التهديد.

- الأداء الانفعالي الوظيفي **Emotional functioning**.

يوجد مدى واسع من المشكلات الانفعالية لدي الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال ومشكلات التعلق بما تشمله من أعراض الاكتئاب والقلق. وأحد السلوكيات العامة الشائعة بين مثل هؤلاء الأطفال هو ما يعرف بالتعلق غير المميز **"indiscriminant attachment"** . فكل الأطفال يسعون إلي الأمن، ينشدون الأمن ويتوقون إليه. وإذا وضعنا في الاعتبار أن التعلق مهم جدًا للبقاء على قيد الحياة؛ ربما يسعى الأطفال إلي التعلق أو الارتباط (أي تعلق أو أي ارتباط) يحقق لهم الأمن. وربما يلاحظ غير الإكلينيكيون أن الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال يحبون ويفضلون الغرباء. والحق أن هؤلاء الأطفال لا يطورون رابطة انفعالية عميقة مع الأشخاص غير المعرفين، وأن سلوكيات التواد المشار إليها هذه هي سلوكيات تجسد فعليًا السعي إلي الأمن والسلامة الشخصية ولا تعكس حبًا أو توادًا أو عاطفًة على الإطلاق.

ويهتم الإكلينيكيون بصورة خاصة بمثل هذه السلوكيات (سلوكيات التواد الظاهري أو المزيف في الواقع مع الغرباء) لأنها غريبة في الواقع وتضفي غموضًا على فكرة التواد لدى الطفل المساء معاملته كما أنها لا تتسق مع التفاعلات الاجتماعية العادية أو الطبيعية.

- النمذجة غير المناسبة أو المستهجنة **Inappropriate modeling.**

يندفع الأطفال بصورة عامة إلي تقليد أو نمذجة سلوك الكبار – حتى وإن كان سلوك مشينًا أو مسيئًا. فعادة ما يتعلم الأطفال ضحايا سوء المعاملة أن سلوك سوء المعاملة طريقة صحيحة ومقبولة للتفاعل مع الآخرين. وكما يمكن أن ترى فإن هذه الإمكانية (إمكانية تعلم ضحايا سوء المعاملة لسلوكيات سوء المعاملة) تسبب مشكلات في التفاعلات الاجتماعية لهؤلاء الضحايا مع الكبار ومع غيرهم من الأطفال. فالبنسبة للأطفال ضحايا الإساءة الجنسية على سبيل المثال، ربما يصبحون في المستقبل أكثر عرضة للمزيد من سوء المعاملة الجنسية. وربما يصبح الذكور على وجه الخصوص ضحايا التعرض لسوء المعاملة الجنسية أكثر ميلاً لارتكاب الإساءة الجنسية عندما يكبرون بل قد يرتكبون جرائم جنسية في مرحلة المراهقة أو الرشد.

- العدوان **Aggression.**

تعد القسوة والعدوان من المشكلات السلوكية الرئيسية لدى الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال ومشكلات التعلق. وترتبط القسوة والعدوان بمشكلتين أساسيتين لدى الأطفال ضحايا الإهمال على وجه الخصوص هما: المشكلة الأولى: نقص التعاطف. والمشكلة الثانية: ضعف التحكم في الذات أو في الاندفاعات.

كما يفسر شيوع القسوة والعدوان بين هؤلاء الأطفال (ضحايا سوء المعاملة والإهمال ومشكلات التعلق) بأنهم ينقصهم القدرة على الفهم الانفعالي لتأثيرات أفعالهم على الآخرين وهي قدرة (الفهم الانفعالي لتأثير الأفعال على الآخرين) تفسد أو تتلف أو تعاق **Impaired-** هكذا بنصه - نتيجة تعرض الأطفال لسوء المعاملة والإهمال فإن اقترنت الإساءة والإهمال بمشكلات التعلق خلال مراحل العمر السابقة عادة ما يعبر سلوكيًا عن هذه المشكلات بالسلوك العدواني الموجه ضد الآخرين. حيث لا يفهم أو لا يشعر مثل هؤلاء الأطفال بانفعالات ومشاعر الآخرين بل تراهم في الكثير من الأحيان كما لو كانوا مجبرون ضرب أو إيذاء الآخرين بصورة مباشرة خاصة الأضعف منهم.أما القوى منهم فقد يدبرون لهم المكائد والفتن بغرض الإيذاء أيضًا. وقد يؤذون الحيوانات، صغار الأطفال، الأقران، والأشقاء.

ومن العناصر المزعجة لهذا العنف والعدوان أنه غالبًا ما يقترن بالجفاف الانفعالي، والانفصال الانفعالي عن الآخرين، وبنقص التعاطف. فقد يظهر هؤلاء الأطفال الندم والندم استجابة عقلية أو معرفية لكنهم لا يشعرون مطلقًا بالأسى والأسى استجابة انفعالية عندما يتم مواجهتهم بسلوكياتهم العدوانية وقسوتهم غير المبررة.

ثالثاً

ما الذي أستطيع فعله للمساعدة ؟

يصنع الآباء وغيرهم من القائمون على أمور تنشئة، رعاية، وتعليم الأطفال كل الفرق في حياة الأطفال ضحايا سوء المعاملة. ويتضمن الجزء التالي بعض الطرق التي قد تفيد في هذا الصدد:

1. عبر سلوكيًا عن الرعاية والاهتمام**Nurture these children:** .

يحتاج هؤلاء الأطفال إلي التدليل، الاحتضان، التقبيل، دفء العلاقة، ...الخ. اقترب بدنياً منهم، عبر عن اهتمامك ورعايتك وحبك لهم بكل الوسائل المتاحة. كن مدركًا أن خبرة الاقتراب البدني واللمس التي تعايش معها هؤلاء الأطفال في الماضي مقترنة بالألم، التعذيب، أو الإساءة الجنسية. في هذه الحالات، تأكد وراقب عن كثب ردود أفعالهم لمحاولات اقترابك بدنيًا منهم وكن مقدرًا لاستجاباتهم لرعايتك وتصرف على هدى هذا التقدير والإدراك. وعليك بكثير من الطرق، تقديم أو توفير خبرات بديلة لتلك الخبرات التي تعرض لها هؤلاء الأطفال في مرحلة مهدهم وطفولتهم المبكرة . ومع ذلك تذكر أنك ستفعل هذا (توفير خبرات إيجابية بديلة للخبرات السلبية التي تعرضوا لها) في وقت أصبح فيه من الصعب تعديل أو تغيير مخ هؤلاء الأطفال. وبناء عليه يحتاجون المزيد والمزيد من خبرات الارتباط أو الربط والعروة لنساعدهم على نمو التعلق الإيجابي.

2. حاول أن تفهم/تتفهم السلوكيات قبل العقاب أو قبل التداعيات أو النواتج اللاحقة **Try to understand the behaviors before punishment or consequences**.

كلما تعلمت المزيد عن مشكلات التعلق، النمو النفسي العادي أو الطبيعي، والنمو النفسي غير العادي أو غير الطبيعي أو الشاذ، كلما تحسنت قدرتك على إعداد وتطوير برامج أو على الأقل آليات تدخل سلوكي واجتماعي فعالة ومفيدة في هذا الصدد. ولاشك أن توفير المعلومات فيما يتعلق بهذه المشكلات يمكن أن يحول بينك وبين سوء فهمك/تفهمك لسلوكيات الطفل. فعندما يخزن الأطفال الغذاء على سبيل المثل، يجب أن لا يعتبر هذا السلوك هكذا ابتداءً أو تلقائيًا بأنه سرقة، لكن اعتباره نتيجة شائعة ومتوقعة للحرمان من الغذاء أو الأكل أثناء مرحلة الطفولة المبكرة. واعلم أن مدخل العقاب (وغيره من المداخل السلبية الأخرى) غير مجدي على الإطلاق ولا يساعد الطفل على النضج. وفي الحقيقة، يزيد العقاب بالفعل إحساس الطفل بعد الأمن، الضيق والكدر الانفعالي، وربما يزيد كذلك من الحاجة أو الرغبة في تخزين المزيد من الطعام.

وسلوكيات العديد من هؤلاء الأطفال (ضحايا سوء المعاملة والإهمال وذوي مشكلات التعلق) مربكًا ومحيرًا ومزعجًا في نفس الوقت للآباء ومقدمي الرعاية. وهنا قد يحتاج الآباء

ومقدمو الرعاية مساعدة الخبراء المتخصصين في التعامل مع هذه النوعية من الأطفال لخلق وتطبيق مدخل عملي مفيد للتغلب على هذه المشكلات.

3. تعامل مع هؤلاء الأطفال (ربي هؤلاء الأطفال) بناء على عمرهم الانفعالي **Parent these children based on emotional age.**

غالبًا ما يوجد تأخر في النمو الانفعالي والاجتماعي لدى الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال. فعندما يتعرض مثل هؤلاء الأطفال إلي الخبرات أو المواقف المحبطة أو المخيفة، عادة ما يرتدون إلي التعبير عن هذا الخوف والإحباط بسلوكيات أو ردود أفعال غير سوية لا تتناسب على الإطلاق مع المرحلة العمرية التي هم عليها وتعرف هذه الظاهرة في أدبيات علم نفس النمو والصحة النفسية النكوص **Regression**. ويعني هذا، عند أي لحظة، قد يصدر عن طفل ضحية سوء المعاملة والإهمال يبلغ من العمر 10 سنوات ردود أفعال انفعالية لخبرة الإحباط أو الخوف تتشابه مع ردود أفعال طفل عمره سنتين كأن يرتمي على الأرض، يصرخ، يرفس، ...الخ. فعلى الرغم من أمنياتنا أن يتصرف مثل هذا الطفل بما يتسق مع عمره بل وإصرارنا على ذلك، فلن يكون قادرًا على ذلك. وفي مثل هذه الأوقات يتعين علينا أن نتفاعل مع مثل هذه النوعية من الأطفال وفق مستواهم الانفعالي (مستوي عمرهم الانفعالي). فإن كانوا لا يتوقفون عن البكاء، محبطون، متضايقون بما يتشابه انفعاليًا مع أعمار الأطفال الأصغر سنًا تعامل معهم كما لو كانوا أطفال صغار. استخدم تفاعلات التهدئة أو الترضية غير اللفظية، احملهم، اقترب بدنيًا منهم، داعبهم، عانقهم. فليس هذا وقت استخدام المناظرات اللفظية المعقدة لتداعيات سلوكهم غير المناسب.

4. كن متسقًا، محدد الاتجاه ومعلوم حدودك، وحافظ على التواتر والتكرار **Be consistent, predictable and repetitive.**

الأطفال المساء معاملتهم ذوي مشكلات التعلق حساسون جدًا للتغيرات في النظام، للتحولات، للمفاجآت، للمواقف الاجتماعية الغامضة غير المنظمة، وعمومًا للمواقف الجديدة أو غير المألوفة. كما أن المواقف الاجتماعية المزدحمة الفريدة تزعجهم وتربكهم حتى وإن كانت مبهجة أو مفرحة! حفلات أعياد الميلاد، الإجازات، الرحلات الأسرية، بداية العام الدراسي، ونهاية السنة الدراسية فكل هذه المواقف قد مواقف توافق صعبة بالنسبة لهم. وبسبب ذلك، فإن أي مجهودات يمكن أن تفعل لجعل هذه المواقف مقننة أو متسقة، متنبأً بها، روتينية أو ذات طابع تكراري متواتر مهمة جدًا لجعل هؤلاء الأطفال يشعرون بالأمن والسلامة. وعندما يشعرون بالسلامة والأمن الشخصي هنا يمكن أن يستفيدون من الخبرات الانفعالية والاجتماعية الإيجابية التي تقدم لهم. فإن كانوا خائفون قلقون، لن يستفيدون بأي حال من الأحوال من أي أسلوب أو طرق معاملة حتى وإن كانت شديدة الإيجابية.

5. <u>نمذج وعلم السلوكيات الاجتماعية المناسبة أو الإيجابية</u> **Model and teach appropriate social behaviors**.

لا يعرف الكثيرُ من الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال كيف يتفاعلون مع الآخرين. ومن الطرق المفيدة لتعليمهم كيفية التعامل مع الآخرين أن ينمذج الآباء والقائمون على أمور تنشئتهم، رعايتهم، وتعليمهم سلوكيات التفاعل الاجتماعي الإيجابي مع الآخرين دائمًا أمام هؤلاء الأطفال وفي كافة المناسبات والمواقف الاجتماعية على أن يتبع ذلك أن يشرح لهم هذه السلوكيات والتأكيد على أسباب الإتيان بها في هذه المناسبات أو المواقف. وعليك أن تكون بمثابة مذيع يصف مباراة تجرى أمامه على سبيل المثل يمكن أن تقول بصوت مرتفع أمام الأطفال " أنا ذاهب إلي الحمام لأغسل يدي قبل الغذاء بسبب.........0" وتكمل " لقد تناولت الصابون ودعكت بها يدي و...... " هنا يرى الأطفال، ويسمعون، وبالتالي تزداد احتمالات تقليدهم لمثل هذه السلوكيات. إذن القصة ليست نمذجة صامتة على الرغم من فعاليتها بل نمذجة مقترنة بالوصف والشرح والتعليم المباشر والتأكيد على الفائدة والسبب.

وبالإضافة إلي النمذجة، يمكن تدريب الأطفال المساء معاملتهم أثناء لعبهم مع الأطفال الآخرين. فأثناء اللعب يمكن أن يقوم الأب أو المعلم باستخدام نفس التكنيك المشار إليه (المذيع) كأن يقول أثناء اللعب بصوت مسموع: " حسنًا، عندما تأخذ اللعبة عنوة من زميلك ربما يستاء منك فإن أردت أن تدخل على زميلك السرور عند اللعب معه قم بعمل كذا ..... ". وتأتي أهمية اللعب مع الأطفال الآخرين، أنه من خلال اللعب الإيجابي الفعال معهم يتحسن تقدير الطفل المساء معاملته لذاته وتزداد بالتدريج ثقته في ذاته. ومع الوقت، فإن النجاح في التفاعل مع الأطفال الآخرين يفضي إلي تقليل الفظاظة الاجتماعية وتقليل ميل الأطفال ضحايا الإساءة والإهمال إلي العنف والسلوك العدواني.

وغالبًا ما لا يشترك الأطفال المساء معاملتهم في أنشطة وخبرات التفاعل الاجتماعي مع الآخرين خاصة الأقران بسبب تأخر أو افتقادهم إلي المهارات الاجتماعية التي تمكن من مثل هذه المشاركة. كما أن مظهرهم الشخصي غير المهندم ونوعية ملابسهم التي قد تكون رثة وضعف أو اعتلال صحتهم البدنية قد تكون وراء الكثير من صور المضايقة والإزعاج التي يتعرضون لها على يد الآخرين خاصة أقرانهم ومن هنا وجب الاهتمام ببرامج تعليمهم مهارات رعاية الذات وتوفير الملابس التي تتناسب مع حالة الطقس العامة على أن تكون ذات جودة مرتفعة. إضافة إلي توفير برامج تحسين حالتهم الصحية العامة.

ويواجه الأطفال المساء معاملتهم مشكلات خطيرة في واقع الأمر في تعديل صيغ تواصلهم البدني مع الآخرين. فهم لا يعرفون متي يكون من المناسب والمقبول عناق الآخرين ومتي يكون من غير المناسب القيام بذلك و لا من المسموح والمقبول عناقه واحتضانه ومن غير المسموح القيام بذلك معه، ولا يعرفون المسافة المناسبة التي يفترض أن تفصل بينهم وبين الآخرين أثناء الوقوف أمامهم أو التحدث معهم (مهارة المسافة الشخصية أو الحيز الشخصي)، لا يعرفون متي يقيمون تواصل بصري مع الآخرين ومتي يكون من المناسب كسر التواصل البصري مع الآخرين، لا يعرفون السياقات المناسبة التي ينظفون فيها أنوفهم، يلمسون فيها أعضائهم الجنسية، أو فعل سلوكيات هندمة أو تجميل الذات (المظهر الشخصي).

ومن المثير للدهشة، أن الأطفال ذوي مشكلات التعلق غالبًا ما يبادرون بالاقتراب أو الاتصال البدني بالغرباء (معانقتهم، تشبيك أيديهم معهم، الزحف للجلوس على أرجلهم). وغالبًا ما يسئ الراشدين تفسير هذه السلوكيات ويعتبرونها سلوكيات دالة على الحب والتواد. لكنها ليست كذلك بالفعل. إذ هي سلوك تضرع أو توسل أو التماس **"supplication" behavior** كما أنها سلوكيات غير مناسبة أو غير مقبولة اجتماعيًا. والمهم في هذا الصدد كيفية تعامل الراشدين من صيغ الاقتراب أو التواصل البدني غير المناسبة هذه. فلا يجب أن نرفض عناق الطفل بأي حال من الأحوال لكن علينا أن نوضح له نشرح له بصبر السلوك المناسب. ويمكن أن نرشد الطفل بلطف أو رفق كيف يتفاعل بصورة مختلفة مع الكبار والأطفال الآخرين (لماذا لا تجلس على الأريكة بدلاً من الجلوس على رجل هذا الرجل؟). من المهم أن نجعل هذه الدروس التعليمية المباشرة واضحة تمامًا باستخدام كلمات محددة قدر الإمكان. وقد لا تكون هذه الكلمات مباشرة إذ يفضل عادة التركيز على الهاديات أو القرائن غير اللفظية. كما أنه من المهم جدًا أن نشرح للطفل بطريقة لا تجعله يشعر بالذنب أو بأنه طفل سيئ.

6. <u>أنصت إلي الأطفال وتحدث معهم **Listen to and talk with these children.**</u>

من الأشياء الممتعة التي يمكنك فعلها فقط توقف، اجلس، أنصت، والعب مع هؤلاء الأطفال. فعندما تكون هادئًا ومتفاعلاً ستجد أن هؤلاء الأطفال يقبلون عليك، يخبرونك بما بداخلهم بالفعل. وعلى الرغم من سهولة الكلام فإن هذا الأمر من أصعب الأشياء على بعض الراشدين إلا أن ممارسة مجاهدة الذات والتدريب على الاسترخاء من الوسائل التي تمكننا من التوقف، الجلوس، الهدوء، الإنصات المتعاطف، بل واللعب مع الأطفال حتى وإن كانوا في شدة ثورتهم وهياجهم الانفعالي والحركي. فقط ابدأ وستدهش من النتائج. إذ بهذه الأفعال يبث في قناعة الأطفال أنك هنا فقط من أجلهم وبالتالي يشعرون أنهم محل رعايتك واهتمامك.

فأثناء هذه اللحظات يمكنك أن تصل إلي وتعلم هؤلاء الأطفال. إنه وقت رائع لتبدأ في تعليم الأطفال ما يتعلق بمشاعرهم المختلفة. وبغض النظر عن النشاط الذي ستمارسه معهم في هذا الوقت من المهم أن تعرف المبادئ التالية:

من الطبيعي أن يخبر الأطفال كل المشاعر (سلبية كانت أم إيجابية) الحزن، السعادة، أو الضيق والاستياء (المزيد من الانفعالات للأطفال الكبار).

علم الأطفال الطرق السوية الإيجابية للتصرف عند الحزن، السعادة، أو الغيظ والغضب.

تحرى أو استكشف كيف يشعر الآخرون وكيف يعبرون عن أو يظهرون مشاعرهم " تفتكر بماذا يشعر زميلك عندما تدفعه بعنف؟ ".

عندما تحس أن الطفل الذي أمامك سعيد، حزين، مغتاظ أو غضبان، اسأله بماذا يشعر؟ وساعده على التعبير عما يشعر به بالكلمات ثم ساعده على معرفة مسمي ما يشعر به (فئة الانفعال).

7. كون أو ضع توقعات واقعية منطقية للأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال **Have realistic expectations of these children**.

يعاني الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال من الكثير من المشكلات التي يجب أن يتم التغلب عليها. وقد لا يتمكن البعض منهم من التغلب على كل مشكلاتهم. على سبيل المثال وجد أن طفلة رومانية تم تبنيها في ملجأ للأيتام عندما كان عمرها خمس سنوات وبعد أن قضت سنوات عمرها المبكرة بدون أي رعاية انفعالية أن إمكانياتها النمائية محدود جدًا وبالتالي يصعب وضع توقعات نمائية عادية لها. فقد سرق ـ هكذا بنصه ـ الكثير من إمكانياتها النمائية نتيجة الحرمان الانفعالي في السنوات التكوينية الأولي من عمرها مما يتعذر معه تعويض أو استبدال هذا الإمكانيات بأخرى.

ونعلم بيقين أن التنبؤ بإمكانيات النمو لا يتم في فراغ خاصة وأننا نمتلك نتيجة التطور العلمي الكثير من أدوات تقييم مكامن القوة وبواطن الضعف لدي الطفل في أبعاد النمو النفسي المختلفة لديه الانفعالي، السلوكي، البدني، الاجتماعي، المعرفي. كما أن التقييم الشامل للطفل على يد الأخصائيين الكلينيكين المؤهلين أساس البدء بتحديد وتعريف مجالات المهارة والمجالات التي سيكون فيها التقدم بطيئًا.

8. تحلي بالصبر تجاوبًا مع تقدم الطفل ومع نفسك **Be patient with the child's progress and with yourself**.

التقدم أو التحسن في الحالة السلوكية العامة للطفل المساء معاملته قد يكون بطئ. والتحسن البطيء بالتأكيد محبط للكثير منا وقد يجعلنا نشعر بعدم الكفاءة بسبب أن كل الحب، كل الوقت والجهد الذي بذلناه مع الطفل يبدو أن لا أثر له. لكن الأمر على غير هذا النحو. لا تحمل نفسك أكثر مما تحتمل. فالكثير من الأباء المحبين، الكفءُ، الماهرين، المكرسين حياتهم لأطفالهم يغرقون في تلبية احتياجات أطفالهم العاديين ومع ذلك قد نقول قد لا تكون النتائج على نحو ما يرغبون. فما الحال ونحن نتعامل مع أطفال مأزومون، أطفال في أزمة، أطفال ضحايا لسوء المعاملة والإهمال دون ذنب. إذن الصبر وطول النفس وصية أولى وحاسمة والنتيجة إيجابية بكل تأكيد.

9. اعتني بنفسك **Take care of yourself**.

رعاية الأطفال المساء معاملتهم عملية منهكة بل ومضعفة للمعنويات في الكثير من الحالات. ولا يمكنك توفير رعاية متسقة، ثرية، ومفيدة لهؤلاء الأطفال وأنت في حالة إعياء بدني ونفسي. وبالتالي عليك الاهتمام بنفسك اسعي إلي تجديد طاقتك وخذ قسطًا معقولاً من الراحة واطلب المساندة والمؤازرة من كل المصادر المتاحة. وقد تكون مؤسسات الرعاية والخدمات، الأصدقاء، ومؤسسات الخدمات الاجتماعية في المجتمع مصادر مفيدة جدًا لتوفير هذه المساندة والمؤازرة المطلوبة. واعلم أنك لن تستطيع على الإطلاق مساعدة طفلك وأنت متعب، مستهلك، مضايق انفعاليًا، مكتئب، غاضب، محبط، وممتعض. تخلص بكل الوسائل من هذه المنغصات.

10. استفد من كل مصادر المساندة والخدمات المتاحة في المجتمع **Take advantage of other resources**.

يوجد في كل المجتمعات جماعات مساندة للأسر سواء كانت الأسر العادية أو الأسر التي تتبنى أطفال وكذلك جماعات مساندة لمؤسسات الرعاية والإيواء. ويمكن أن يكون الخبراء المتخصصين في التعامل مع الأطفال ذوي مشكلات التعلق أو الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال مفيدون جدًا في تقديم المساعدة والنصح في هذا الصدد. واعلم في نهاية الأمر أن التدخل المبكر والمكثف في واقع الأمر، المعيار الرئيسي لتحسين الحالة السلوكية العامة للأطفال.

يوجد الكثير من الأماكن التي يمكنك أن تتعلم منها المزيد عن التعلق والارتباط لدى الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال. وفيما يلي قائمة بالقليل من هذه الأماكن.

رابعًا

مصادر للمعلومات الخاصة بمشكلات التعلق والارتباط لدى الأطفال ضحايا سوء المعاملة والإهمال

المؤسسات المتخصصة:-

1. مؤسسة من الصفر إلي الثلاث **Zero To Three**:

مؤسسة وطنية أهليه غير حكومية موجودة في العاصمة الأمريكية واشطنون. تعمل في مجال تنمية أو تحسين النمو النفسي السوي أو الصحي للرضع وصغار الأطفال. أسست سنة 1977 على يد مجموعة من خبراء أو علماء النمو النفسي. وتهتم المؤسسة بنشر المعلومات النمائية، تدريب القائمين على أمور تنشئة، رعاية، وتعليم الأطفال، صياغة نماذج ومعايير الممارسة والعمل لزيادة الوعي العام بأهمية وخطورة السنوات الثلاث الأولى من عمر الطفل بالنسبة للنمو النفسي بقية حياته. للحصول على الإصدارات العلمية لهذه المؤسسة ولمتابعة مشاريعها البحثية يمكن زيارة موقع هذه المؤسسة على شبكة المعلومات العالمية : **http://www.zerotothree.com** .

2. مؤسسة باكت للدفاع عن المتبنين (الأطفال والأسرة) PACt:

جمعية وطنية غير حكومية بدأت سنة 1991 فقط باثنين من الآباء بالتبني. ثم سرعان ما ذات سمعت هذه الجمعية لتميزها في خدمة كل الأطفال المتبنون. وتؤم هذه الجمعية سنويًا الكثير من الأحداث التربوية التي يحضرها أكثر من 1500 فردًا وتقدم خدمات مجانية، وتهتم أساسًا بالتعامل مع الأطفال والأسر التي تتعرض لأزمات أو صدمات. إضافة إلي تطبيق الكثير من برامج تدريب الأطفال والأسر. لمعرفة أهم أنشطة هذه المؤسسة ومشاريعها البحثية قم بزيارة موقعها الإلكتروني التالي: **http://www.pactadopt.org** .

3. تحالف التعلق الوالدي الدولي **Attachment Parenting International**:

ائتلاف يتضمن الأفراد، الخبراء، و المؤسسات الخيرية. يدافع هذا الائتلاف عن طرق التعلق الوالدي (أساليب المعاملة الوالدية الإيجابية السوية) التي يترتب عليها نمو وتلبية أو إشباع حاجة الأطفال إلي الثقة، التعاطف، والتواد من أجل أن يكونوا قادرون على إقامة والاستمرار في علاقات تفاعل اجتماعي آمنة ودائمة مع الآخرين. وينطلق هذا التحالف من الاعتقاد بأن التعلق الوالدي الآمن الناتج عن أساليب التنشئة والمعاملة الوالدية السوية الإيجابية مع الاقتران بجهود جماعات المساندة والمؤازرة لا يقوي الأسر فقط بل يوفر نموذج بسيط وفعال للمساعدة في الوقاية من سوء معاملة الأطفال، الاضطرابات السلوكية، والأفعال الإجرامية. للمزيد عن هذا التحالف ولمراجعة مشاريعه البحثية يمكن زيارة موقعه الإلكتروني التالي: http://www.attachmentparenting.org .

خامسًا

مسرد بالكلمات المفتاحية ومعانيها

(المصطلحات التي وردت في المقال)

- <u>التعلق **Attachment**</u>: صيغة خاصة لعلاقة انفعالية حميمة أو ودية. ويتضمن التعلق تواد، أمن، متعة كل أفراد العلاقة.
- <u>التناغم **Attunement**</u>: القدرة على قراءة احتياجات الآخرين أثناء التواصل معهم والاستجابة الإيجابية لهذه الاحتياجات. وتتطلب هذه القدرة الانتباه الدقيق والحساسية للهاديات أو القرائن اللفظية وغير اللفظية التي تتبدى على الآخرين تعبيرًا عن هذه الاحتياجات.
- <u>الرابطة أو العروة **Bond**</u> الرابط أو الرابطة أو العروة علاقة. وقد تكون الروابط علاقات ذات طابع انفعالي مثل التعلق أو قد تؤسس الروابط على انفعالات أخرى مثل (الخوف مثل ذلك الخوف الذي نراه بين الآسر والأسير في خبرة الوقوع في الأسر).
- <u>إجراء موقف – الغريب **Strange-Situation Procedure**</u>: إجراء إكلينيكي-بحثي يتضمن ثمانية سيناريوهات هجر أو انفصال مقدمي الرعاية عن /وعودتهم إلي الطفل بهدف قياس وتحديد طبيعة صيغ أو أشكال التعلق بين هذا الطفل ومقدمي الرعاية له (الوالدين وخاصة الأم).

ملحوظة: سيتم تحديث هذه المصادر بصورة دورية وإرسالها إلي كل من يطلبها في إصدار خاص تصدره أكاديمية الطفل ضحية الصدمة **The Child Trauma Academy** أو من خلال موقع الأكاديمية التالي http://www.childtrauma.org حيث سيجد المتصفح لهذا الموقع مصادر ومواد علمية كثيرة عن الأحداث الصادمة أو الضاغطة التي يتعرض لها الأطفال.

سادسًا
التعريف بالمؤلف

دكتور/ بروس دنكان بيري *Bruce Duncan Perry, M.D., Ph.D*: حاصل على درجة دكتوراه الطب النفسي ودكتوراه الفلسفة في الصحة النفسية. المدير الطبي لبرامج مكتب الصحة النفسية بمقاطعة ألبرتا. ومستمر كذلك في ترأس وتوجيه أكاديمية الطفل ضحية الصدمات وهي عبارة عن معهد بحث وتدريب أسس سنة 1990. ومن سنة 1990 إلي سنة 2001 عمل دكتور بيري أستاذ للدراسات العليا والبحوث في الطب النفسي للطب في كلية الطب وترأس كذلك قسم الطب النفسي بمستشفي تكساس للأطفال في بوسطون، بمدينة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية.

سابعًا
التعريف بأكاديمية الطفل ضحية الصدمات أو الأزمات
The Child Trauma Academy

أكاديمية الطفل ضحية الصدمة أو الأزمة تحالف فريد لمجموعة من الأفراد والمؤسسات العاملة على تحسين حياة الأطفال المعرضون للخطر من خلال الخدمات المباشرة، البحث والتعليم والتدريب. وتنسق هذه الأكاديمية جهودها في هذا المجال بالتعاون مع النظم الحكومية والخاصة المخول إليها وقاية، وعلاج، وتعليم الأطفال. وتتلقى الأكاديمية الدعم والتمويل الجزئي لأعمالها من قسم خدمات التنظيم والوقاية بتكساس، المؤسسات القضائية المختصة بقضايا الأطفال.
للمزيد عن أكاديمية الطفل ضحية الصدمة أو الأزمة يمكن مراسلة السيدة: **Jana Rubenstein على البريد الإلكتروني التالي: jlrcta@aol.com .**

تعليق المترجم.

حقيقة لا أستطيع أن أخفي متعتي الشديدة بقراءة وترجمة هذا المقال. فهو على عمقه يمتاز ببساطة ووضوح العرض وشموليته في نفس الوقت. ويفتح أمامنا نافذة للتأمل الجاد في الكثير من ممارستنا العفوية في الواقع التي نتعامل بها مع أطفالنا خلال السنوات الأولى من عمرهم. لذلك تملكتني رغبة لم استطع مقاومتها في إتاحة هذا المقال بتفاصيله وحواشيه للقارئ العربي بصفة عامة والمهتم بقضايا البحث العلمي في مجال الطفولة بصفة خاصة عله يسهم في إثارة الوعي بأخطر هذه القضايا خاصة قضية تعرض الأطفال إلي سوء المعاملة والإهمال.

(وأخيرًا أذكركم ونفسى بحديث سيد الخلق المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه " من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة" . اللهم اجعلنا جميعًا ممن يحبون العلم وأهله وممن يسعون لتحصيل